

# مصادر التصوف الإسلامي



## أهداف الدرس

1. أن أتعرف مصادر التصوف الإسلامي.
2. أن أثبت خصائص مصادر المعرفة عند الصوفية.
3. أن أتمثل أحوال الصوفية ومقالهم في سلوكي.

## تمهيد

التصوف الإسلامي مر بمراحل ، وحصل فيه -كغيره من العلوم- تطور في: المنهج ، والمسائل ، وبُني على أصول شرعية ، تفاوتت درجات فهمها والاستنباط منها ، فظهرت فيه مدارس ، وألفت فيه كتب ، ونبغ فيه أعلام ، وعُرف فيه عبّاد ونُساك ، يَدُلُّون السائرين في الطريق إلى ربهم -بحالهم ومقالهم- على معالم المسير وزاد الطريق .

فما مصدر معارف الصوفية عند الصوفية؟ وما مستند أحوالهم وأقوالهم التي بها يُرشدون؟

## نص الانطلاق

1. قال الإمام الشاطبي -رحمه الله- «الصوفية الذين نسبت إليهم الطريقة مُجمعون على تعظيم الشريعة مقيمون على متابعة السنة، غير مُخلين بشيء من آدابها، أبعد الناس عن البدع وأهلها، ولذلك لا نجد منهم من ينسب إلى فرقة من الفرق الضالة، ولا من يميل إلى خلاف السنة، وأكثر من ذكر منهم علماء وفقهاء ومحدثون، وممن يؤخذ عنه الدين أصولاً وفروعاً، ومن لم يكن كذلك فلا بد له من أن يكون فقيهاً في دينه بمقدار كفايته. وهم كانوا أهل الحقائق والمواد، والأذواق والأحوال والأسرار التوحيدية، فهم الحجة لنا على كل من ينتسب إلى طريقتهم، ولا يجري على مناهجهم». [الاعتصام، ص 172].

2. قال الشيخ زروق - رحمه الله - «أخذ العلم والعمل عن المشايخ أتم من أخذه دونهم ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ النَّبِيِّ اتُّوُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: 49] ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيْنَا﴾ [لقمان: 14]. فلزمت المشيخة، سيما والصحابة أخذوا عنه عليه الصلاة والسلام، وقد أخذ هو عن جبريل، واتبع إشارته في أن يكون: عبدا نبيا، وأخذ التابعون عن الصحابة، فكان لكل أتباع يختصون به، كابن سيرين، وابن المسيب، والأعرج لأبي هريرة، وطاووس ووهب ومجاهد لابن عباس، إلى غير ذلك. فأما العلم والعمل فأخذه جلي فيما ذكروا، وكما ذكروا. وأما الإفادة بالهمة والحال فقد أشار إليها أنس بقوله: «ما نفطنا التراب عن أيدينا من دفنه عليه الصلاة والسلام حتى أنكرنا قلوبنا» فأبان أن رؤية شخصه الكريم كانت نافعا لهم في قلوبهم...؛ إذ من تحقق بحالة لم يخلُ حاضروه منها؛ فلذلك أمر بصحبة الصالحين، ونهى عن صحبة الفاسقين...» [قواعد التصوف، ص 54].

## الفهم

### استخلاص المضامين:

- أستخلص من النصين ما يدل على اتباع الصوفية أثر النبي ﷺ واستمدادهم من سنته قولاً وعملاً وحالاً.

### الشرح:

**الهمة:** تجريد القلب بالمُنى.  
**يخلُ حاضروه منها:** إشارة إلى ما يحصل من التأثر والانتفاع بالحضور والمجالسة.

## التحليل

التصوف الإسلامي معتمد على الكتاب والسنة، ومصادر المعرفة الإسلامية. وهو بهذا المعنى لا مجال لادعاء أي مؤثرات خارجية -مزعومة- فيه؛ إذ المعتبر الذي يصدق عليه هذا الوصف «التصوف الإسلامي» هو ما انبثق من الشريعة الإسلامية بمصادرها التي تغني عن غيرها، وهي:

### أولاً: القرآن الكريم

القرآن الكريم من أصول المعارف الإسلامية عامة والتصوف الإسلامي خاصة، بما تضمنه من قواعد السلوك والفرار إلى الله، والمسارعة إليه في آيات تضمنت كليات وأصول عامة تنظم

سير العبد إلى ربه، وتذكره بخالقه، وتبصره بحقيقة دنياه، وأمر آخرته، كما في قوله تعالى ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوَ وَزِينَةٌ وَتَغَاوُرُ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: 19]. وقوله تعالى ﴿فَلَمَتَاعُ الدُّنْيَا فَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُضِلُّهُمْ بَتِيْلَةٌ﴾ [النساء: 76] وغيرها من الآيات الدالة على مسائل التصوف وما عني به أربابه في سلوكهم من الزهد والورع والإقبال على الله، وكل ذلك بمنهج وسط معتدل لا إفراط فيه ولا تفريط، وقد أثر عن سيد الطائفة الإمام الجنيد - رحمه الله - قوله «علمنا مضبوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ولم يتفقه، لا يُفْتَدَى به» [الرسالة القشيرية، ص 431].

ومن أمثلة أصول مسائل التصوف في القرآن الكريم:

- **المجاهدة**، وهي أقرب الأسباب الموصلة إلى الله تعالى، وهي مجاهدة بالقلب، والنفس، والمال، وأُسِّست على جملة من النصوص منها قول الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنَّا لَا يَدْخُلُونَ فِي الْفِتْنَةِ سَبِيلًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [العنكبوت: 69].

- **التزكية**، وبها تكون تزكية النفس، وتخليتها من الرذائل، وتحليتها بالفضائل، وتبويئها المراتب والمنازل، ومن الأدلة عليها قول الله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا ۚ قَالَ أَعْمَلْنَا فَجْورَهَا وَتَقْوَاهَا ۚ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۚ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: 7-10].

- **الذكر**، وهو - كما عرفه الإمام ابن عطاء الله السكندري - «التخلص من الغفلة والنسيان بدوام حضور القلب مع الحق، وقيل: ترديد اسم الله بالقلب واللسان، أو ترديد صفة من صفاته، أو حكم من أحكامه، أو فعل من أفعاله، أو غير ذلك مما يُتَقَرَّبُ به إلى الله» [مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح، ص 7]. وهو من أجل ما عني به الصوفية؛ إذ هو الأصل في تزكية النفس وتربيتها، والرقى بها في علاقتها مع الله، وإلى هذا المعنى يومئ قول الإمام الجنيد رحمه الله «التصوف أن تكون مع الله بلا علاقة» [الرسالة القشيرية، ص 280]. وأدلة الذكر وآياته في القرآن الكريم جمة غفيرة، منها قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَكْصَمُونَ بِيَدِكُمُ اللَّيْلَ أَلَّا يُدْكَرَ اللَّهُ تَكْصِمُ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 29]. وقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُذِّبُوا بِاللَّهِ كُذِّبُوا كَثِيرًا ۚ وَسَيَحْكُمُ بَكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: 41-42].

- **المقامات**، مثل: التوبة، والتقوى، والمحبة، والتوكل، والشكر، والصبر، والخوف، والرجاء، والصدق، واليقين، والذكر، والعلم، والتفكير، والتدبر، والاعتبار، والاستقامة...

وأدلة هذه المقامات وغيرها كثيرة في القرآن الكريم ، وهي دالة على أصالة مسائل التصوف الإسلامي .

## ثانياً: السنة النبوية الشريفة

يستند التصوف إلى السنة النبوية: قولاً ، وفعلاً ، وتقريراً . قال الإمام الجنيد رحمه الله «علمنا هذا -التصوف- مُشَبَّكٌ بحديث رسول الله ﷺ» [الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، للمناوي، 453/1]. والأحاديث التي تبنى عليها مسائل التصوف كثيرة، منها الحديث المعروف بحديث جبريل -عليه السلام- الذي ورد فيه معنى «الإحسان» «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل]. وقول النبي ﷺ لابن عباس -رضي الله عنهما- «يا غلام، احفظ الله يحفظك» [سنن الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع]. وقول النبي ﷺ «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس» [صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم]. وقول النبي ﷺ: «الحلال بين، والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهة» [صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب: الحلال بين، والحرام بين، وبينهما مشبهات]. فهذه الأحاديث أصول كبرى تدرج فيها كثير من العبادات والمعاملات عند الصوفية، ومما أثر عن سيد الطائفة الإمام الجنيد -رحمه الله- قوله «الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ، واتبع سنته، ولزم طريقته، فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه» [حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 276/10] فالسنة النبوية الشريفة أصل من أصول التصوف، ومصدر من مصادره التي أخذ منها الصوفية أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم؛ حيث تعتبر السنة النبوية الشريفة مصدراً من مصادر التصوف الإسلامي بما كان في حياة النبي ﷺ من عبادة، وزهد، وتحنُّث، وتقليل من المأكَل والمشرب، وتأمل في الكون والحياة، والأخذ بأسباب الصفاء، وقد اعتبر الصوفية ما كان من أمر النبي ﷺ في غار حراء دليلاً عملياً على: المجاهدات، والأحوال، والخلوات، قال الإمام الغزالي -رحمه الله- مبيناً فوائد العزلة «التفرغ للعبادة والفكر والاستئناس بمناجاة الله تعالى عن مناجاة الخلق والاشتغال باستكشاف أسرار الله تعالى في أمر الدنيا والآخرة وملكوت السموات والأرض؛ فإن ذلك يستدعي فراغاً ولا فراغ مع المخالطة فالعزلة وسيلة إليه، ولذلك كان ﷺ في ابتداء أمره يتبتل في جبل حراء وينعزل إليه حتى قوي فيه نور النبوة» [إحياء علوم الدين، ص 272/2].



## ثالثاً: التراث الإسلامي

يشمل التراث الإسلامي ما انبثق من القرآن الكريم والسنة النبوية مما هو موافق لهما من اجتهاد العلماء وأقوالهم، انطلاقاً من آثار الصحابة والتابعين، ومن تبعهم من الربانيين المتأسيين برسول الله ﷺ. وأصل التراث الإسلامي: القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، وقد ظهر جماعة من الزهاد الذي عرفوا بزهدهم وورعهم في مراحل مختلفة من التاريخ الإسلامي أثمرت أقوالهم قواعد في السلوك والمقامات والأحوال، ثم ما لبثت أن تطورت فصارت تأليفاً وكتبا خاصة ينهل منها الراغب في سلوك هذا المسلك.

## رابعاً: المعرفة الصوفية

لا يقتصر التصوف على كونه طريقاً في العبادة فقط، بل هو طريق في المعرفة أيضاً؛ إذ التقوى تثمر العلم ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُرْسِيِّهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 281]. ونجد كتب أعلام التصوف زاخرة بالمعرفة الصوفية المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية، وما يفتح الله به عليهم من مواهب وعلوم لدُنْيَا، وقد ظن من لا يفهم حقيقة التصوف أن هذا الأمر مجال لقول مَنْ شَاءَ ما شَاءَ، والأمر ليس كذلك، قال الإمام الشاذلي: «إذا عارض كشفك الكتاب والسنة، فتمسك بالكتاب والسنة، ودع الكشف، وقل لنفسك إن الله قد ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة، ولم يضمنها في جانب الكشف، ولا الإلهام، ولا المشاهدة، مع أنهم أجمعوا على أنه لا ينبغي العمل بالكشف ولا الإلهام إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة». [إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ص 68].

ويستمد الصوفية معارفهم من «المنهج العقلي» الذي هو منهج العوام، و«المنهج النقلي» القائم على الاستدلال، و«المنهج الذوقي» وهو خاص بالصوفية، وقد قيل للإمام الجنيد - رحمه الله -: من أين استفدت هذا العلم؟ فقال: من جلوسي بين يدي الله ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة - وأوماً إلى درجة في داره - [تاريخ بغداد، 168/8]. والمعرفة عند الصوفية تأتي من وجهين: من عين الجود، وبذل المجهود.

## التقويم

1. أذكر مصادر التصوف الإسلامي.

2. أبين مصادر المعرفة الصوفية.

## الاستثمار

قال الإمام الشاطبي - رحمه الله - : «كل ما عمل به المتصوفة المعتبرون في هذا الشأن لا يخلو: إما أن يكون مما ثبت له أصل في الشريعة أم لا؟ فإن كان له أصل؛ فهم خُلُقَاءُ به؛ كما أن السلف من الصحابة والتابعين خُلُقَاءُ بذلك. وإن لم يكن له أصل في الشريعة فلا عمل عليه؛ لأن السنة حجة على جميع الأمة، وليس عمل أحد من الأمة حجة على السنة؛ لأن السنة معصومة عن الخطأ وصاحبها معصوم، وسائر الأمة لم تثبت لهم عصمة؛ إلا مع إجماعهم خاصة، وإذا اجتمعوا تضمن اجتماعهم دليلاً شرعياً كما تقدم التنبيه عليه. فالصوفية كغيرهم ممن لم تثبت له العصمة، فيجوز عليهم الخطأ والنسيان والمعصية كبيرتها وصغيرتها، فأعمالهم لا تعدو الأمرين. ولذلك قال العلماء: كل كلام منه مأخوذ أو متروك إلا ما كان من كلام النبي ﷺ».

[الاعتصام للشاطبي، ص 277].

أحلل نص الإمام الشاطبي رحمه الله وفق منهجية تحليل النصوص في الفكر الإسلامي.

## الإعداد القبلي

أبحث عن خصائص التصوف الإسلامي وأعد ورقة في تحليلها.